Journal of Humanitarian and Applied Sciences – مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية
(رقم الإيداع المحلي - 2020/95) – (ISSN: 2706 – 9087) - (معامل التأثير العربي شهادة رقم: 472 – 2020)
كلية الآداب والعلوم قصر الأخيار – جامعة المرقب
Volume 8 – Issue 16 المجلد 8 – العدد 16

الجند المرتزقة في قرطاجة (241–237 ق.م)

شعبان علي أبوراس

جامعة المرقب / كلية الآداب الخمس

Received: 27/11/2023 | **Accepted:02/12/2023**

Abstract

The ongoing conflict between the Roman Empire and the Carthaginians in the Mediterranean region and their intense competition for control over Sicily ultimately led to a long war. It was inevitable that one of them would emerge victorious and eliminate the other from existence, and this is what happened. The end was tragic with Carthage's defeat in the First Punic War, resulting in the massacre of the Carthaginian government of Libyan and foreign soldiers who fought against the Greeks and Romans. Carthaginian leaders abandoned the remaining troops without paying their dues. Following the end of the First Punic War, the mercenary soldiers in the city of Carthage rebelled against the Carthaginian government due to non-payment of their financial dues, sparking a rebellion in ancient Morocco. The problem of the study lies in highlighting the role of the mercenary soldiers in the Carthaginian army and their actions against Carthage. The study concluded that the mercenary soldiers in Carthage initially complained about the non-payment of their financial dues, which then turned into a rebellion against Carthage that led into a revolution. The Carthaginians adopted the formula of paid soldiers, and practiced exclusion from the Maghreb peoples and continued to consider them as alien peoples to them, instead of integrating them politically and militarily to confront the danger coming from across the sea.

ملخص:

إن الصراع القائم بين الإمبراطورية الرومانية والقرطاجيين في منطقة البحر المتوسط والتنافس الشديد بينهم للسيطرة على صقلية، أدى في النهاية إلى قيام حرب طويلة، وكان لابد وأن ينتصر أحدهما، ويزيل الآخر من الوجود، وهذا ما حدث، حيث كانت النهاية مأساوية بهزيمة قرطاجة في نهاية الحرب البونية الأولى، وكان من نتائجها إبادة حكومة قرطاجة للجنود الليبيين والأجانب الذين كانوا في صفها في حروبها ضد الإغريق وروما، وقام القادة القرطاجيين بالتخلي عن باقي الجند دون دفع أدنى مستحقاتهم المترتبة على قرطاجة.

وعقب انتهاء الحرب البونية الأولى قام الجنود المرتزقة في مدينة قرطاجة بإعلان التمرد على الحكومة القرطاجية؛ وذلك لعدم حصولهم على مستحقاتهم المالية، فاندلعت ثورة الجند المرتزقة بالمغرب القديم، و ترتكز إشكالية البحث على إبراز دور الجند المرتزقة في الجيش القرطاجي وما قاموا به ضد قرطاجة، حيث خلصت الدراسة إلى أن الجند المرتزقة في قرطاجة تدمروا بداية من عدم دفع مستحقاتهم المالية ، ثم تحول التدمير إلى تمرد على قرطاج ومنها إلى ثورة ،واعتمد القرطاجيون صيغة الجندي المأجور، ومارسوا الإقصاء على الشعوب المغاربية وظلّوا يعتبرونها أقواما غريبة عنهم عوض دمجها سياسيا وعسكريا لمواجهة الخطر القادم من وراء البحر.

الكلمات المفتاحية: الجند، المرتزقة، قرطاجة، الحرب البونية.

المقدمة

إن الصراع القائم بين الإمبراطورية الرومانية والقرطاجيين في منطقة البحر المتوسط والتنافس الشديد بينهم للسيطرة على صقلية، أدى في النهاية إلى قيام حرب طويلة، وكان لابد وأن ينتصر أحدهما، ويزيل الآخر من الوجود،

وهذا ما حدث، حيث كانت النهاية مأساوية بهزيمة قرطاجة في نهاية الحرب البونية الأولى، وكان من نتائجها إبادة حكومة قرطاجة للجنود الليبيين والأجانب الذين كانوا في صفها في حروبها ضد الإغريق وروما، وقام القادة القرطاجيين بالتخلي عن باقي الجند دون دفع أدنى مستحقاتهم المترتبة على قرطاجة.

وعقب انتهاء الحرب البونية الأولى قام الجنود المرتزقة في مدينة قرطاجة بإعلان التمرد على الحكومة القرطاجية؛ وذلك لعدم حصولهم على مستحقاتهم المالية، فاندلعت ثورة الجند المرتزقة بالمغرب القديم، والتي أسفرت عن ضعف وانهيار كامل للخزينة القرطاجية، فمنذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد اعتمد تكوين الجيش القرطاجي بشكل كبير على تجنيد الجند المرتزقة، ويرجع ذلك إلى كثرة الحروب التوسعية التي خاضتها قرطاجة، وكذلك لقلة عدد سكانها.

ترتكز إشكالية البحث على إبراز دور الجند المرتزقة في الجيش القرطاجي وما قاموا به ضد قرطاجة ، ثورة محلية أم تمرد عليها .

تساؤلات الدراسة :

- هل كان الجيش القرطاجي معتمداً على المرتزقة في حروبه التي خاضها ضد خصومه؟
- ما أسباب تمرد الجنود المرتزقة ضد قرطاجة ؟
- كيف تعاملت قرطاجة مع الجنود المتمردين ؟

-ما هي النتائج التي تحققت من الحرب بين قرطاجة والمتمردين ؟

أولاً :تأسيس قرطاجة :

تأسست مدينة قرطاجة على الساحل الليبي حسب أسطورة إغريقية على يد أميرة من مدينة صور (صورية) تدعى الأميرة إليسا حوالي 814 ق.م، وأطلقت اسم (قرط حدشت) (Qart-Hadasht) على المدينة أي المدينة الجديدة(ميادان، 1981، ص 10) ، وتحولت بالتدريج إلي مركز تجاري كبير في المنطقة، ثم إلى عاصمة لكل الجاليات التجارية الفينيقية في الحوض الغربي للمتوسط؛ لأنها تقع على مقربة من أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، والتي كانت بوابة هؤلاء لعبور المحيط الأطلسي، ولها الموقع الاستراتيجي على حوض المتوسط الذي كان مسرحاً متحركاً لحركة التجارة في المنطقة، وقد بدأ توافد الفينيقيين إليها للمكانة التي اعتلتها بسرعة قياسية(ديورانت، 2008،ص 99).

وقد امتد نفوذ قرطاجة على الجزء الأكبر من الشاطئ الإفريقي ليصل فيما بعد إلي إسبانيا ويشمل جزر البحر الأبيض المتوسط الغربية، وكان نظام حكمها يتمثل بمجلسين، مجلس الشيوخ ومجلس الشعب، وعلى رأس حكمها قاضيان، وقد امتازت قوتها الحربية بأسطول بحري جعل منها سيدة البحار، وهذا من أحد الأسباب الذي جعل روما تخشاها وتنظر بعين الريبة والترقب إلى قوتها (ابي فاضل ، 2012، ص 25) .

ومع نمو روما وظهور تطلعات لها في البحر المتوسط ستجد قرطاج نفسها أمام منافس شرس يحل محل منافسها الإغريقي، ويعتمد على قوة عسكرية محترفة، وحيث إن المصالح التجارية لقرطاج كانت أكبر بكثير من إمكاناتها البشرية والعسكرية، فإنها كانت تعتمد منذ بداية الاصطدام بالإغريق،ثم الرومان على الآلاف من المجندين الذين تستأجرهم وتضعهم تحت قيادة كبار الضباط القرطاجيين(ديورانت، 2008، ص 99).

ثانياً: تكوين الجيش القرطاجي :

كان للتجار القرطاجيين الأثرياء دور مهم جداً في تجهيز جيش مدينتهم حتى تصبح قوة عظمى لها كلمتها في المنطقة، فقد أدركوا أهمية أن تكون دولتهم دولة مسيطرة عسكرياً في البحر المتوسط حتى تصبح تجارتهم هي المسيطرة بدورها على الطرق التجارية البحرية من الساحل الفينيقي إلي ما وراء أعمدة هرقل، وكانت قرطاجة تعامل الشعوب الخاضعة لحكمها معاملة قاسية إلى حد ما، فكانت جزيتها السنوية ثقيلة على كاهل مستعمراتها، بالإضافة إلي فرض التجنيد الإجباري على كل من بلغ السابعة عشرة ، وما فوق من شبابها، وكانت الضرائب تمول خزينتها سنوياً (ديورانت، 2008، ص 99).

عاد القائد عبد ملقرت من صقلية إلى قرطاجة فأسند مجلس الشيوخ القرطاجي إليه مهمة تولى قيادة الجيش والتصدي للمرتزقة في(240 ق.م) بدلا من هانو، وبالفعل نجح في تكوين جيش قرطاجي يتكون من (10) آلاف من القرطاجيين الأصليين بالإضافة إلى قوة من المرتزقة الموالين و(70) من الأفيال لتخليص أوتيكا من المرتزقة المتمردين (Salimbet (2014); pp.58-59)

لم يكن يتصور أحد أن حرباً قد تقع بين روما وقرطاجة، فالقوتان الصديقتان بلغتا من التجهيز العسكري مكانة قد تجعل من أي صدام بينهما ضرباً من الانتحار، وروما التي بدأت ترسخ أقدامها على التراب الإيطالي، كانت تنظر بعين الريبة إلى صقلية الجزيرة التي لا تبعد عن المناطق التي تسيطر عليها دولة التيبر أكثر من كيلو متر ونصف، يسيطر على مناطقها الغربية جيش قرطاجة واليونانيون، وكان الاتفاق بين روما وقرطاجة ينص على أن يكون الحوض الغربي للبحر المتوسط بيد قرطاجة، على أن تترك الحرية لدولة التيبر في التصرف في حوضه الشرقي، لكن في الحوض الغربي كانت هناك شوكة في منطقة النفوذ القرطاجي ألا وهي مساليا (Massalia) ففي هذه المنطقة كان هناك قاعدة تجارية مهمة لليونانيين وهي آخر ما تبقى لهم في غرب المتوسط، ولم يدم صبر قرطاجة طويلاً على حركة مساليا، فبدأت تمارس القرصنة على السفن الخارجة من ذلك المرفأ والداخلة إليه، الأمر الذي أشعل غضب اليونانيين في شرق صقلية.

وفي عام 289 ق.م هرب مجموعة من المرتزقة الذين استأجرهم اغاتوكليس حاكم سيراكوزا في الجزء اليوناني من صقلية إلى مسينا، وذلك مباشرة بعد وفاة الحاكم، وأطلقوا على أنفسهم اسم المامرثيين أي أبناء المريخ (كيندر وآخرون، 2012، ص 81) ، وفي مسينا ارتكبوا الفظائع بحق سكانها اليونانيين عندما رفضوا الانصياع لهم، كما طردوا حامية قرطاجية، فقتلوا الرجال ورموا بهم في البحر، وسبوا النساء وجعلوا منهن زوجات لهم، وأعلنوا أنفسهم حكاماً مريخيين على مسينا، سريعاً جاء رد حاكم سيراكوزا في صقلية هييرو الثاني فهاجم المامرثيين وبطش بهم، فطلب هؤلاء النجدة من قرطاجة ومن روما في الوقت نفسه Warmington ،1993، p 165.)

اصطدمت قرطاج بروما عسكريا ودارت بينهما أكبر حرب عرفها التاريخ القديم وهي الحرب البونية، أطلق عليها الرومان اسم (بونية) نسبةً إلى كلمة (Poeni) وهو الاسم الذي أطلقوه على القرطاجيين(ايمار وآخرون، 1964، ص 43) ، لذلك فالحروب البونية هي سلسلة من الصراعات الحربية بين قرطاجة وروما، وكانت جزيرة صقلية على الخصوص هي ميدان الحرب البونية الأولى

(246 – 241 ق.م)، أما ميدان الحرب البونية الثانية فكان إيطاليا (201 – 218 ق.م)، وفي الحرب البونية الثالثة (149 – 146 ق.م) تم تدمير قرطاجة وقضي عليها نهائياً (عصفور، 1981، ص 86 – 97).

ثالثاً: –الجند المرتزقة في قرطاجة:

انتهت الحرب البونية الأولى بهزيمة القوات القرطاجية وتخليها عن ممتلكاتها الخارجية في صقلية وكورسيكا بالإضافة إلى دفع تعويض مادي كبير للرومان، إلا أن تلك الهزيمة لقرطاجة لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت القرطاجيين حيث اندلعت ثورة الجند المرتزقة بالمغرب القديم والتي أسفرت عن ضعف وانهيار كامل للخزينة القرطاجية(Rainey.S،2004، p.98).

بعد انتهاء الحرب البونية الأولى وعقد اتفاق الصلح بين القرطاجيين والرومان، تنحى عبد ملقرت عن قيادة الجيش ونقلة من صقلية إلى إفريقيا وأسندت تلك المهمة للقائد جيسكو (Gesco) قائد موقعة ليليبي في غرب صقلية، وبالفعل تم إرسال المرتزقة)Cowell. F.R،1962, p.28 (، إلى قرطاجة في جماعات صغيرة ولكن سرعان ما امتلأت المدينة بالمحاربين الغاضبين غير مدفوعي الأجر، فقد طالب المرتزقة بمستحقاتهم المالية في حين لم يكن لدى قرطاجة القدرة على الوفاء بتلك الالتزامات حيث استنفذت ثرواتها لأكثر من 20 عاماً في حروبها ، وبالتالي لم تتمكن من احترام عقودها، كما يرجح البعض أن تمرد المرتزقة يرجع لفقدان قرطاجة سيطرتها على المناجم الإسبانية في بداية عام (240 ق.م) مما أفقدها القدرة على تسديد نفقات الجنود(حسين، 2022، ص 19,21) .

ومن تم وجدت قرطاجة نفسها تواجه تهديدا خطيراً للإطاحة من الداخل، فاقترح مجلس الشيوخ القرطاجي دفع عملة ذهبية واحدة لكل رجل كدفعة أولى من الديون ولكن بشرط تقاعد القوات عند مدينة سيسكا (Sicca) القرطاجية)Hoyos .D ، ,2010)p270، وبالفعل تم الموافقة على ذلك الشرط وبدأ الجيش في التقاعد، وتتولى مهمة توزيع الأموال القائد هانو الذي سعى إلى تخفيض المبلغ المستحق دون التفاوض مع المرتزقة مما أشعل الثورة بداخل معسكراتهم وتوجهوا مرة أخرى صوب العاصمة وعسكروا على بعد (120) ستاديوم منها، خشت قرطاجة من تطور الأوضاع وسعت لتهدئة الأمور فأرسلت الطعام وجزء من المال المستحق إلى معسكر المرتزقة (2014) ، (Salimbeti. A& D'amat .R.، p 57) ،ولكنها فوجئت بتعين ثلاثة قادة لهم وهم سبنديوس الإغريقي (Spendius) وماثو الليبي (Matho) وأوتاريتيوس الزعيم الغالي (Autaritus) .(غانم، ص 136).

كانت مطالب الجند تتمثل في الحصول على القمح، وتعويضهم على خيولهم التي خسروها في الحرب، وأخذت أوضاعهم تزداد سوءً، ومطالبهم تزداد حدّة، فلم يجد مجلس الشيوخ القرطاجي حلاً إلا النظر في مطالبهم عن طريق التفاوض لغرض التهدئة وكسب الوقت ، وإمعانا في التحايل عبّر المجلس عن استعداده للتوسط مع قادتهم العسكريين، وانتدب لمهّمة التفاوض والتهدئة القائد جيسكو، الذي ذهب إلى سيسكا محملا بمبالغ مالية معتبرة، وبالمؤن لتوزيعها على عائلات الجند، في سيسكا، اعتمد جيسكو على الدهاء، فتعّمد أن يتفاوض مع كل مجموعة عرقية على حدة ونجح في إقناع الأغلبية منهم بأن ينتظروا مدّة لتسوية أوضاعهم، وكاد الأمر أن ينتهي على هذا النحو لولا انكشاف نوايا القائد القرطاجي المفاوض، الذي كان يتماطل لكسب الوقت، فارتفعت الأصوات وسط الجموع الحاشدة بأن الأرستقراطية التجارية الحاكمة في قرطاجة لا تريد أن تنفق من ثرواتها الطائلة على من كانوا يفتدونها بأرواحهم في الحرب، وكان على رأس من كشفوا تلاعب القرطاجيين اثنان من قادتهم السابقين وهما ماتو (Mathos) وسبنديوس (Spendius)، وعلى أثر ذلك تم القبض على جيسيكو واتباعه، وبذلك اندلعت ثورة المرتزقة في المغرب القديم في وقت متأخر من عام (241 ق.م) فيما يعرف بالتمرد العظيم أو كما أطلق عليها بوليبيوس الحرب الليبية أو الحرب الوحشية، كما

انضمت معظم مدن المغرب القديم إلى المرتزقة التمردين مستغلين الضعف العسكري والاقتصادي للقرطاجيين، فيما عدا مدينتي اوتيكا(Utica) وهيبو (Hippo) لأنهما كانتا مركزا لجالية بونية لا تختلف في جشعها عن الأوليغارشية (Oligarchie) الحاكمة في قرطاجة، وذلك رغبة في تعويض ما فرضه عليهم القرطاجيين من ضرائب باهظة أثناء الحرب ضد الرومان (Polybius ،:. .(2014); p.57)

رابعاً:– الحرب بين قرطاجة والمتمردين :

قسّم المرتزقة المتمردون جيشهم إلى ثلاثة أقسام اثنان لحصار مدينتي أوتيكا وهيبو بزعامة سبيندیوس، والثالث بزعامة ماثو لحصار قرطاجة نفسها، و أسند القرطاجيون مهمة التصدي للمرتزقة للقائد هانو الذي خرج بجيش صغير من الريف القرطاجي صوب أوتيكا وتمكن من هزيمتهم بها، وبث بداخلهم حاله من الذعر، ثم توجه صوب هيبو ولكن دون أخذ الاحتياطات اللازمة لتأمين معسكره في أوتيكا، ونظراً لأن المرتزقة كانوا جنوداً محترفين ومحنكين اعتادوا على التجمع بعد الانتكاس قاموا بمهاجمة معسكر القرطاجيين واستولوا على كمية كبيرة من الإمدادات وأعادوا السيطرة على أوتيكا

ما إن خرج عبد ملقرت من قرطاجة حتّى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الثائرين، وبدا له أن المهمة التي كلف بها ليست سهلة، وليس أمامه سوى الدفاع عن نفسه وعن الطبقة الحاكمة في المدينة، فصفف جنده استعداداً للمعركة، ولكن الجيش القرطاجي لم يصمد وانهزم واتجه إلى أسوار المدينة للاحتماء بها، وفي هذا الموقف الحرج تمّكن القائد عبد ملقرت باركا الذي كان يمتلك خبرة حربية كبيرة من الاحتفاظ برباطة الجيش للاستفادة من أي خطأ يُرتَكب في معسكر العدو لتحويل الهزيمة إلى نصر (Polybe ،I.،76 ،1-10.)، إلا أن عبد ملقرت كان يبحث عن مخرج من الحصار المضروب حول قرطاجة، وبينما هو يراقب الوضع لاحظ أن الرياح القوية التي تهب على مصب نهر باغرادا تملأه الرمال ويكون شبه معبر يمكن المرور منه إلى الجهة الأخرى، وهي نقطة بعيدة عن أنظار المعسكر الآخر، فاحتفظ بهذه الملاحظة وعند نزول الليل أمر بانطلاق جيشه للعبور من ذلك المنفذ دون أن يثير انتباه عدوه، وهكذا بوغت معسكر الثائرين الذي كان تحت قيادة سبيندیوس الذي لم يجد بداً من المواجهة الحربية وأكثر من ذلك قام عبد ملقرت باعتماد حيلة غاية في الدهاء بحيث رتب جنده والفيلة في الأمام ثم الفرسان وبعدهم المشاة ثم أوعز إلى جيشه أن يوهم الخصم بأنه انهزم، وأعلن الانسحاب بسرعة، وعندما لحق جيش الثائرين في نشوة مما حدث استدار جيش قرطاجة فكانت الضربة قاضية للثائرين (شارل، 1985، ص 99.)، فما أن لاحظ جند الثائرين منتشين بانتصارهم دون تماسك حتى أمر بالهجوم المضاد، وضرب الضربة الخاطفة، فأوقع هلعاً كبيراً في صفوف الثائرين وأباد منهم ستة ألاف واقتاد ألفي أسير، وأطلق العنان لجنده الذين استرجعوا ثقتهم بالنفس، فقاموا بنهب المدن والقرى والأرياف المجاورة عقاباً لها على تأييد الثائرين وعادوا بغنائم معتبرة (دوكريه، 1996، ص 175).

في تلك الأثناء كان ماثو لا يزال يحاصر هيبو، ولما وصلته أخبار انهزام جيش سبيندیوس أسرع في طلب المدد من كل المدن والقبائل الليبية النوميدية في الداخل، ثم طلب من أنصاره تحاشي المواجهة الحربية في الأراضي السهلية لتفّوق القرطاجيين بخيالتهم وفيالتهم، وأمر بأن يستدرج الخصم دائما إلى الأرض الجبلية لتكون الطبيعة عونا لهم في المعركة (Tome III، " 1928،S. Gsell ، .p. 112.)

التقى سبيندیوس وقائد الجند أوتاريتيوس (Autarite) وهو غالي خدم مدة طويلة في جيوش قرطاجة ويعرف اللغة البونية وكان شرساً قاسياً لا يحترم أية اتفاقات، وتحصلا على مددٍ من القبائل الليبية النوميدية وكانا على رأس الجيش الثائر الذي أخذ على عاتقه مهمة حصار قرطاجة، وأخذا يتابعان عن قرب مسيرة عبد ملقرت باركا، حتّى عسكر في سهل محاط بتلال وغابات، فعسكرا هما

أيضا قبالة خصمهم في موقع محاط بخنادق، وجعلوا على الأطراف وفي المؤخرة مجموعات من المشاة النوميديين المسلحين بالرماح والنبال لإحكام الحراسة عليه (S. Gsell op. cit. p 112)..

رغم تمكن عبد ملقرت من فك حصار قرطاجة إلا أن قواته لم تكن بالقوة الكافية للتمكن من التصدي لبقية المرتزقة في أوتيكا وهيبو، إلى أن تغير ميزان القوى لصالح القرطاجيين، في ذلك الوقت وصل إلى معسكر عبد ملقرت قائد فرسان نوميدي من درجة رفيعة اسمه نافاراسيوس (Naravas) أو نافارا جد ماسنيسا، وكان قد غادر جيش ماثو ومعه ألفي فارس، وطلب مقابلة عبد ملقرت باركا شخصياً، فاستقبله عبد ملقرت بحفاوة وطلب منه أن يفصح عن غرضه، فأجابه بأنّه يكن مودة وإخلاصاً للبونيين وأنه يريد أن يكون الصديق الحميم والرفيق الدائم له في كل أعماله (دوكريه، 1994، ص 148)..

وقد وجد عبد ملقرت في حديث هذا القائد النوميدي الشاب صراحة بريئة فلم يتردّد في الإعلان له بأنّه سيجعله مستشاراً له، بل وتعهد بأنه سيزوجه بابنته إن بقي على وفائه لقرطاجة، وتأكيد ذلك التحالف قام بمصاهرته والزواج من ابنته لإدراكه مدى تفوق وحنكة عبد ملقرت السياسية والقتالية، وبذلك تغير الموقف القتالي لصالح القرطاجيين حيث تمكن عبد ملقرت من إحلال الهزيمة بقوات المرتزقة في كل من أوتيكا وهيبو (صفر، 1969، ص 207)...

عاد نافاراسيوس إلى معسكره، وفي الوقت المناسب خرج منه والتحق بالمعسكر القرطاجي ولا ريب أن ذلك كان من أسباب النصر الذي حققه عبد ملقرت باركا في المعركة الرهيبة التي خاضها بعد انضمام نافاراسيوس إليه، حيث انهزم الثائرون تاركين وراءهم عشرة آلاف قتيل وأربعة آلاف أسير، وكانت هذه المعركة هي بداية العدّ العكسي بالنسبة لهم، واسترجع عبد ملقرت تفّوقه وأصبح هو الآخذ بزمام الحرب (دوكريه، ص 174)..، بعد هذا النصر الساحق، قرر عبد ملقرت باركا أنّه يقبل في صفوف جيشه كل من يريد خدمة قرطاجة، على حد تعبيره، وأطلق باقي الأسرى بعد أن تعهدوا له بأنهم لن يحملوا السلاح ضده. (صفر، ص 207)

وقد بدأ عبد ملقرت باركا الحرب النفسية و كان يريد بذكائه أن يثبت بأنّه متسامح وأنّه لن يعاقب من تخل عن حمل السلاح ضدّه، ولذلك وجد ماثو وحليفه سبيندیوس نفسيهما يواجهان وضعاً صعباً، فقد يغري سخاء عبد ملقرت وإعلانه إطلاق سراح الأسرى جندهما، فيتفرقوا عنهما، ولكن من جهة أخرى ليس صعباً أن يتفهم جند ماثو وحليفه سبيندیوس حقيقة الأهداف التي يسعى إليها عبد ملقرت باركا، وهم يعرفون مقدار استعلاء القرطاجيين عندما تكون الغلبة لهم، وعلى العموم فإن الجنود يكون قد توجسوا الانتقام الشديد خاصة من العنصر الأهلي، وهو الذي يمثل الأغلبية، فإطلاق بعض الأسرى لا ينسي إطلاقا إبادة عشرة آلاف جندي، ولذلك وقع هيجان كبير في جند ماثو، وكان القادة الثلاث يدركون خطورة عواقب الحرب النفسية التي خطط لها عبد ملقرت بدهاء كبير، حين بدأ بعفوه عن الأسرى، وأدى التنكيل بالأسرى القرطاجيين إلى إثارة سكان قرطاجة، وطلبوا بتوحيد صفوف القائدين المتنافسين، عبد ملقرت وهانو اللذان كانا على خلاف بسبب شلل القوات القرطاجية، فعُهد إلي الجند أنفسهم بأمر اختيار واحد من القائدين ليضلع وحده بإدارة العمليات، فكانت الغلبة لصالح عبد ملقرت الذي تم انتخابه قائداً (دوكريه، ص 148).

أصبح عبد ملقرت القائد الأوحد، كما أن انتصاره الساحق خلف رعباً كبيراً في صفوف الثائرين، ولم يعد أحد يقوى على المجازفة بمواجهته، فتحول إلى اعتماد أسلوب حرب الكمائن، وكل أسير يقع بين يديه يأمر بتقطيعه إرباً، ورمي جثته للوحوش الضارية (شارل، ص 99)..

تحولت المدينتان (هيبو وأوتيكا) إلى صف الثائرين ضدّ قرطاجة، ولعل العداوة التقليدية بين أوتيكا وقرطاجة عادت من جديد (غانم ، 1979 ص ص.95 – 96.)، فقد قام الأوتيكيون بإبادة الحامية القرطاجية في مدينتهم وكان قوامها حوالي خمسمائة رجل، وقذفوا

بجثثهم في خندق المدينة، وكذلك المراكب التي كانت قادمة من امبوريا حاملة المؤن إلى قرطاجة غرقت في البحر مما يهدد العاصمة بمجاعة (دوكريه، ص 148)..

وعندما اطمأن ماثو إلى ولاء هيبو وأوتيكا، عاد إليه الأمل في مواصلة الحرب، وزحف إلى قرطاجة، وفور وصوله إليها، شرع في حصارها، ويبدو أن عبد ملقرت قد هاله تجمع خصومه حول المدينة، فلم يجازف بالخروج بجنده لمواجهتهم، ولذلك لجأ إلى خطة أخرى؛ فقد أمر بتشديد الحراسة على الأسوار واستخلف ابنه حنبعل على المدينة، وخرج متخفّيا على رأس فرقةٍ صغيرةٍ للإغارة على الأرياف الليبية النوميدية، لمضايقة الجند المحاصر لقرطاج ومحاولة فك الحصار عنها، وكذلك عدم وصول المؤن إلى الثائرين، ولا ريب أن نافاراسيوس كان الساعد القوي لعبد ملقرت في كل خططه (دوكريه، ص 175). .

ولم تجد قرطاج بدّا من طلب الإعانة من الإغريقي هيرون(Héron) ملك سيراقوسة (Syracuse) وكذلك من مجلس الشيوخ الروماني لأن الحصار حرم القرطاجيين من التموين براً، ولم يبق أمامها سوى محاولة الحصول على تموين من جهة البحر، فاستجاب هيرون وأرسل مؤناً وعدداً من الجند المأجورين؛ لأن له مصلحة كبيرة في توازن القوى بين جيرانه في المنطقة، أما روما منعت السفن الإغريقية من تقديم العون لقرطاجة خشية حصول تقارب بين الطرفين يهدّد مصالحها، وقد يتحول إلى حلف ضدها؛ لأن مصلحة روما تكمن في بقاء قرطاجة ضعيفة أفضل من زوالها، وسمحت لسفنها بتموين قرطاجة بالمؤن والعتاد، وكان وصول المدد من روما عامل قوة لعبد ملقرت وحليفه نافاراسيوس، فتمّكنا من إجبار ماثو على رفع الحصار عن العاصمة القرطاجية في سنة (239 ق.م) (دوكريه، ص 175، 176).

كان ماثو يريد أن يسدّد الضربة الحاسمة لخصمه، فأوهمه بأنّه ينسحب، وكلف قائده زارزاس (Zarzas) بمهاجمة الجيش القرطاجي من الخلف، وقام هو بنصب كمين بعيداً عن أنظار عبد ملقرت حتّى يأخذه على حين غرة، غير أن تلك المناورات لم تكن تخفى على عبد ملقرت وحليفه نافاراسيوس اللذين استدرجا بدورهما فرقاً من معسكر الثائرين للإيقاع بها، ولما شعرا أنّهما استرجعا قوّتهما وأن بإمكانهما أخذ زمام المبادرة قررا مباشرة حصار معسكر الخصم، فأمرا بالتمركز في كل الممرات والمعابر الضيقة الموصلة إلى معسكر الثائرين، كما أمرا بحفر خندق وإقامة تحصينات عليه لحماية معسكرهما من هجوم مباغت، وبتنفيذ هذه الخطة أصبح معسكر الثائرين محاصرا وليس في إمكانه أن يتلقى النجدات، ولا أن يبادر إلى خوض المعركة، ولا حتّى إلى الانسحاب، وهو مهدد بالمجاعة، وأخذت الأمراض تنتشر في صفوفه وفتكت بالكثير من الأسرى والعبيد وحتي الخيول، ومع ذلك كله لم يبادر عبد ملقرت بالهجوم رغم أن في استطاعته أن يفعل ذلك، وكأنّه ينتظر أن ينهار خصمه نهائياً، ثم يكر عليه كرة واحدة فيسحقه نهائياً، وفي هذا الوضع الصعب حاول أوتاريتيوس وسبيندیوس وزارزاس وقادة آخرين الاتصال بعبد ملقرت للتفاوض معه، ولكن عبد ملقرت اشترط كما يقول المؤرخ بوليب أن يسلم عشرة من الثائرين (يختارهم هو) أنفسهم له، وسيطلق سراحهم، أما الباقي فيسرحون دون سلاح ودون لباس إلا ما يستر عوراتهم.(S. Gsell op. cit. p.119)

أمضى المفاوضون الاتفاق واختار عبد ملقرت سبيندیوس و أوتاريتيوس و زارزاس وسبعة آخرين كما جاء في الاتفاق، وقد تم ذلك كله دون علم القائد الأعلى ماثو الذي كان خارج المعسكر في تلك الفترة ودون علم الجيش الثائر الذي وثق فيهم ، وقد انكشفت خيانة المفاوضين عندما لم يعودوا إلى معسكرهم لعرض نتائج المفاوضات، وانتشر الذعر في صفوف الثائرين الذين تأكدوا بأن حياتهم في سيوفهم، فأخذوا أسلحتهم واستعدوا للحرب (S. Gsell op. cit. p.122،) .

تدل هذه الوقائع على أن القائد القرطاجي تمكن من كسب الحرب النفسية واخترق صفوف خصمه، ولم يبق إلا الاشتباك، ولذلك أمر بدفع الفيلة تجاه الثائرين، وتم الهجوم ونشبت المعركة، فتراجع جيش الثائرين والجيش القرطاجي يتعقبه حتى أجبره على

الاحتماء بمضيق بين الجبال يحتمل أن يكون فج المنشار، وهناك واجه الثائرون مصيراً رهيباً، فقد أبيد منهم عدد كبير ذهب ضحية خيانة القادة المفاوضين الذين آثروا الاحتفاظ بحياتهم مقابل التضحية بذلك العدد الضخم من الجنود، حيث وقع ذلك الجيش الكبير من الثائرين من جهة بين قادة جبناء ذهبوا للتفاوض وتركوه يلاقي مصيره دون قيادة وخصم شرس متعطش للدماء من جهة أخرى (دوكريه، ص176.).

عاد الجيش القرطاجي نحو عاصمته، وجاء دور المفاوض سبينديوس وباقي الأسرى ولم يشفع لهم استسلامهم، حيث صلبوا على مرأى من ماثو وجيشه الذي كان يرابط بجانب أسوار قرطاجة، وفي تلك الأثناء أبصر ماثو القائد القرطاجي حنبعل ابن عبد ملقرت وهو غير مكترث لثقته الكبيرة في القوّة القرطاجية المنتصرة، فأمر بالهجوم على المعسكر القرطاجي الذي يقوده حنبعل، وقتل عدداً معتبراً من جيشه، واقتاد معه حنبعل ذاته أسيراً، وأمر بصلبه وتعذيبه في مقابل ما اقترفه أبوه في حق الثائرين من جرم لا يغتفر، ولما وصل خبر أسر حنبعل إلى والده عبد ملقرت، لم يتوان في إعلان الزحف للالتحاق بمعسكر حنبعل حيث افتك ابنه من الأسر وأبعد خطر الثائرين عن قرطاجة، وكان يخطط لاستدراجهم بعيداً عنها للإجهاز عليهم (Polybe .I.85).

لم يكن في وسع الطرفين أن ينتظرا أكثر، وكان لا بدّ من معركة فاصلة، وأخذ ميزان القوى يميل لصالح القرطاجيين الذين تأكدوا من الإرهاق الذي لحق بجيش خصومهم الثائرين، وهي فرصة لم يشأ القائد القرطاجي عبد ملقرت تضييعها، فأعلن الحرب ودارت المعركة في مكان غير بعيد عن ليبتيس مينور (Minor Leptis)، حيث استجمع الطرفان قواتهما، وبذلك يكون عبد ملقرت قد تمّكن من إبعاد الخطر عن قرطاجة، واختار أن يكون ميدان المعركة الفاصلة في هذه المنطقة البعيدة عن العاصمة البونية ليجنّبها خطر الاستيلاء عليها من طرف الثائرين في حال انتصارهم، وأكثر من ذلك تمّكن من حشد جيش ضخم من النجدات التي جاءته من المدن الموالية له، ولذلك تحقق له النصر حوالي سنة (237 ق.م) وتم القبض على ماثو قائد الثورة وأعدم بفظاعة، واحتفل القرطاجيون بانتصارهم وأطلق عبد ملقرت العنان لجيشه للهجوم على العّزل ونهب كل شيء، واعتبر تلك الغنائم مكافأة لجيشه لقاء النصر الذي حققه. (دوكريه، ص 152.).

كان القائدان عبد ملقرت وهانو قد تصالحا، بعد طول خلاف، فكافأتهما الأوليغارشية (Oligarchie) التجارية القرطاجية بترقيتهما إلى رتبة القيادة العليا، وفي نهاية الحرب قررا الانتقام من مدينتي أوتيكا وهيبو اللتين وقفتا إلى جانب الثائرين، الذين استمروا في المقاومة بعد مقتل القائد الليبي ماثو، ولعل خشية عبد ملقرت من تكرار ما حدث من تمّرد هو الذي جعله ينقل جيشه إلى إسبانيا للتوسع هناك من جهة ولإبعاد الجند عن مدينة قرطاجة من جهة أخرى، وأصبح عبد ملقرت هو القائد الأعلى لكل القوات القرطاجية في إفريقيا وهو منصب حافظ عليه حتى عندما تقلد منصبه في إسبانيا (دوكريه، ص 178.). .

الخاتمة

من خلال هذا البحث نستنتج التالي:

- لم يكن القرطاجيون يشعرون بانتمائهم إلى المنطقة التي سكنوا فيها في المغرب القديم بقدر حبهم وتعلقهم بالمال والتجارة؛ ولذلك صعُب عليهم التضحية بإنفاق قسم من المال على العسكريين المرتزقة، وفضلوا التمسك بالثروة أكثر من تشبثهم بالأرض.
- اضطرت القيادة القرطاجية إلى اعتماد سياسة تقشف بغية تسديد ديونها، وكانت نتيجة التقشف أنها توقفت عن دفع مستحقات المرتزقة الذين قاتلوا في صفوفها خلال الحرب البونية، مما أدى إلى ثورة المرتزقة على قرطاجة بقيادة ماثو واضطرت أن تخوض حرباً معهم ، وكان المرتزقة شرسين في الحرب.

- لم يكن القائد عبد ملقرت أقل شراسة عن القرطاجيين في ساحة المعركة لكنه لم يقتل أي أسير وقع بين يديه إلى أن حاصرهم في مضيق جبلي وسد عليهم المنافذ.
- استمر حصار قرطاجة إلى أن تمكن عبد ملقرت من فرض حصار شديد على المرتزقة بها، ومنع وصول أي إمدادات إليها، وبذلك ضرب الجوع معسكرهم مما أضعف قوتهم القتالية، وطالبوا بعقد الصلح معه.
- اختيار نافاراسيوس (Naravas) التحالف مع الأوليغارشية (Oligarchie) دليل على أفقه الضيّق، وطموحه المحدود الذي لم يكن على ما يبدو يتجاوز الظفر بالزواج من بنت عبد ملقرت، وقد رأينا كيف كان ذلك التحالف السبب الأكبر في قهر الجند المأجورين والتنكيل بهم .
- تبدلت رحمة عبد ملقرت في نهاية المعركة، في معاملة الأسرى من إطلاق سراحهم إلى قتلهم والتنكيل بيهم .
- استسلمت كل من مدينتي اوتيكا(Utica) وهيبو (Hippo) وبذلك انتهت الحرب التي استمرت مع القرطاجيين لمدة ثلاث سنوات وأربعة أشهر .
- أن الجند المرتزقة في قرطاجة تدمروا بداية من عدم دفع مستحقاتهم المالية ، ثم تحول التدمير إلى تمرد على قرطاج ومنها إلى ثورة .
- اعتمد القرطاجيون صيغة الجندي المأجور، ومارسوا الإقصاء على الشعوب المغاربية وظلّوا يعتبرونها أقواما غريبة عنهم عوض دمجها سياسيا وعسكريا لمواجهة الخطر القادم من وراء البحر الذي عندما يزحف لا يبقي ولا يذر، وأكثر من هذا أبادت قرطاج ذلك العدد الكبير من المجنّدين المغاربيين وبذلك فإنّها عمّقت الشعور بالقهر والكراهية لدى الشعب الذي يمثّل عمقها الاستراتيجي وظهرها الذي تستند إليه، وكأنّها تطبّق على نفسها سياسة التجرّد من السلاح.
- يدلّ تلقّي ماثو ومن معه الدعم المادّي والمعنوي من قبل الشعب الأفريقي على أنّ حركته تعبّر عن إرادة شعبية حقيقية للتحرّر من الأوليغارشية التجارية القرطاجية الجشعة التي فضّلت اكتناز الأموال على الوفاء بالتزاماتها إزاء جندها.
- ونستنتج أن التاريخ تصنعه إرادة الشعوب ونظرية الدول التي تعتمد على الآخرين في الدفاع على نفسها هي نظرية مضلله ، وفي أغلب الأحيان سلبياتها أكثر من ايجابياتها.

المراجع والمصادر

المراجع العربية والمعربة:

1. أحمد صفر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار بو سلامة للنشر، تونس، 1969.
2. اندري جوليان شارل، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزال – البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.
3. اندريه ايمار وجانين اوبواية، تاريخ الحضارات العام "روما وإمبراطوريتها"، مجلد 2، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت، 1964.
4. آية يحي أحمد حسين، ثورة المرتزقة، مجلة كلية الآداب جامعة الفيوم، مج 14، ع 1، 2022.

5. فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، مراجعة عبد الله الحلو، الآهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1996.
6. فرانسوا دوكريه، قرطاج الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1994.
7. مادلين هورس ميادان، تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت باريس، سلسلة زدني علما، 1981 .
8. محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
9. محمد الصغير غانم، المقاومة والتاريخ العسكري المغاربي القديم، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات، مطبعة دار هومة ، الجزائر 2007م .
10. محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1979.
11. هيرمن كيندر ،فيرنر هيلغيمن، أطلس تاريخ العالم، ترجمة الياس عبدو الحلو، المكتبة الشرقية، لبنان، الطبعة الثالثة، 2012.
12. وهيب ابي فاضل، الموسوعة الكبرى لتاريخ الشعوب وحضارتها، الجزء الرابع، مركز الشرق الأوسط الثقافي، الحدث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2012.
13. ويل ديورانت، قصة الحضارة، دار نونيليس، المجلد الرابع عشر ، 2008.

المراجع الأجنبية:

1. Brian Herbert Warmington , Carthage , New York , Barnes & Noble, Inc , 1993.
2. Cowell. F.R.,(1962);Cicero and The Roman Republic, London.
3. Hoyos .D.,(2010);The Carthaginians, New york.; p.190.; Evelyn,S,S, 1894
4. Polybius :Histoire de la Guerre Des Vandales , Trad. Par: Durean de IaMalle ,Paris ,1852
5. Rainey.S,(2004); The Nature Of Carthaginian Imperial Activity, Classics Department, University of Canterbury.
6. S. Gsell, "Histoire Ancienne de l' Afrique du Nord", Ed. Hachette, Paris 1928, Tome III.
7. S. Gsell, op. cit.
8. Salimbeti. A&D'amat .R., (2014) ; The Carthaginians 6th–2nd Century BC, Britain.
9. strabo , La Geographie De Strabo , Traduit Par Jean Bufert , 1er Edition , 1992.